

المشهد الفلسطيني

تفجير نفق المقاومة بخانيونس
نظرة في الدوافع والتداعيات المحتملة

مركز رؤية للتنمية السياسية



مركز رؤية للتنمية السياسية

2017

العنوان : تفجير نفق المقاومة بخانيونس.. نظرة في الدوافع والتداعيات المحتملة

السلسلة : المشهد السياسي

الكاتب : مركز رؤية للتنمية السياسية

الشهر / السنة: نوفمبر/2017

جميع الحقوق محفوظة لمركز رؤية للتنمية السياسية © 2017

يسعى مركز رؤية للتنمية السياسية أن يكون مرجعية مختصة في قضايا التنمية السياسية وصناعة القرار، ومساهماً في تعزيز قيم الديمقراطية والتعددية والاعتدال والتسامح. ويسعى المركز إلى تنمية القدرات والإمكانات السياسية لدى الأفراد والجماعات والأحزاب في المنطقة، بما يخدم بناء مجتمعات ودول مدنية وديمقراطية قائمة على مبادئ حق تقرير المصير والحرية، بما يساعد على نبذ العنف والتطرف، والمساهمة في إنجاز الشعوب لحقوقها السياسية والمدنية لاسيما الشعب الفلسطيني.

ويهدف المركز إلى مساعدة الكفاءات العلمية والبحثية في مجال العلوم الإنسانية في تطوير مهاراتها و تنميتها، وتوفير الدعم السياسي والأكاديمي للفلسطينيين، ورعاية الطاقات الثقافية، وتنمية المهارات السياسية لدى الشباب. ويسعى إلى فهم قضايا المجتمع المدني، وتمكين المرأة من خلال أدوات البحث العلمي في الحقول الاجتماعية والإنسانية والسياسية.

Vision Center for Political Development

İkitelli Organize San. Bölgesi Mah. Hürriyet Bulvarı Enkoop Sanayi Sitesi No:70/33

Başakşehir / İstanbul.

Tel: +90 2126310107

www.vision-pd.org/

مقدّمة

فجرّ الاحتلال في الـ 30 من تشرين أول/ أكتوبر الماضي نفقًا تابعًا للمقاومة الفلسطينية، يتجاوز أراضي محافظة خانينونس إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1948. تبيّن فيما بعد أن النفق يعود لسرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي، وأن عددًا من كوادرو وعناصر السرايا قد استشهدوا داخل النفق.

في اليوم نفسه، أعلنت سرايا القدس عن استشهاد خمسة من عناصرها في النفق، من بينهم قائد لواء الوسطى في السرايا ونائبه، ونعت كذلك في بيانها عنصرين من كتائب القسام، الجناح المسلّح لحركة حماس، وقدّمت السرايا في بيانها هذا موقفًا مقتضبًا، قالت فيه إن جميع خيارات الردّ ستكون أمامها مفتوحة.¹

من جهتها، زفّت كتائب القسام شهادتها وشهداء السرايا، وأعلنت أن شهيدها كانوا ضمن قوّة نجدة وإنقاذ تابعة لها، توجّهت صوب النفق "لمساعدة وانتشال" مقاتلي سرايا القدس. وفي حين حملت كتائب القسام الاحتلال الإسرائيلي المسؤولية عن الحادثة، فإنّها أكّدت أن محاولات الاحتلال فرض قواعد للاشتباك ستبوء بالفشل.²

تبيّن فيما بعد أن خمسة آخرين من سرايا القدس ما زالوا مفقودين داخل النفق، وفي حين رَفَضَ الاحتلال السماح لطواقم الإنقاذ الفلسطينية باجتياز الشريط الفاصل بحثًا عن المفقودين، واشترط مقابل ذلك تقديم معلومات عن الجنود الإسرائيليين المفقودين في غزّة، فإن سرايا القدس قطعت عليه الطريق بالإعلان عن استشهاد مفقودها الخمسة.³

وكان الدكتور محمود الزّهار، القيادي في حركة حماس، قد وصف الطلب الإسرائيلي بـ "الابتزاز الحقيير"، مؤكّدًا أنه "لن يتم إعطاء أي معلومات (عن الجنود الأسرى) مقابل إكمال البحث عن المفقودين، وأن أي معلومات ستعطى ستكون مقابل إطلاق سراح المعتقلين في سجون الاحتلال".⁴

وعلى ضوء إعلان حركة الجهاد الإسلامي عن استشهاد المفقودين الخمسة، وبعد إعلان حركة حماس أنها لن تعطي معلومات مجانية بشأن الجنود الإسرائيليين الأسرى لديها، اضطر الاحتلال للإعلان عن عثوره

¹ . بيان لسرايا القدس، موقع سرايا القدس الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/a7ppyi>

² . المصدر السابق.

³ . بيان لكتائب القسام، موقع كتائب الشهيد عزّ الدين القسام، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/w1vu6Y>

⁴ . غزّة.. الاحتلال يشترط تقديم معلومات عن جنوده مقابل السماح بالبحث عن مفقودي النفق، موقع وكالة قدس إنترناشونال للأخبار، 2 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/y3Xyos>

⁵ . بيان لسرايا القدس، موقع سرايا القدس الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، 3 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/S7pSAH>

⁶ . الزهار لـ"المركز": نرفض شروط الاحتلال للبحث عن مفقودي النفق، موقع المركز الفلسطيني للإعلام، 2 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/Pm1LEW>. والأقواس داخل النصّ المقتبس من المصدر.

على جثث المفقودين الخمسة.⁷ ومن الواضح أن التأخر الإسرائيلي في الإعلان عن مصير المفقودين، يؤشر على وجود خلافات إسرائيلية حول التعامل مع هذا الملف، ومن ضمنها محاولة استغلال جثامين الشهداء كورقة لمساومة حركة حماس لاحقاً.⁸

وبالنظر إلى طبيعة العملية الإسرائيلية وأهدافها، وتوقيتها، ونتائجها، وما يمكن أن تفتح عليه من احتمالات التصعيد، فإنّ هذه الورقة تحاول استقراء الأهداف الإسرائيلية، ومواقف الأطراف الفلسطينية، ولا سيما المقاومة الممثلة بكل من حركتي حماس والجهاد الإسلامي، والبحث إن كان لهذه العملية صلة بأحداث أخرى تزامنت معها.

قراءة في الأهداف الإسرائيلية

أعلنت "إسرائيل" منذ اللحظة الأولى، وعبر عدة مستويات داخل المؤسسة السياسية والعسكرية، مسؤوليتها عن تفجير النفق. فقد أعلن أميخاي أدعري الناطق باسم جيش الاحتلال الإسرائيلي للإعلام العربي، بأن الانفجارات التي تُسمع في غزة تخضع للسيطرة الإسرائيلية.⁹ ثم أعلن بعد ذلك أن القيادة العسكرية الجنوبية الإسرائيلية قامت بتفجير "نفق إرهابي" اكتُشف داخل الأراضي الإسرائيلية.¹⁰

أدلى أدعري فيما بعد بسلسلة تصريحات، أكد فيها على اعتبار أن ما جرى هو "نجاح ميداني يستند إلى قدرات تكنولوجية متقدمة جداً"، واعتبار النفق "خرقاً فادحاً للسيادة الإسرائيلية". وتحدث أدعري عن موقع العملية الدقيق لكونه داخل "الأراضي الإسرائيلية"، وحمل حماس المسؤولية عما يجري داخل قطاع غزة، وما ينطلق منه، وأشار إلى أن "إسرائيل" مستعدة للسياريبوهات كلها، رغم عدم رغبتها في التصعيد.¹¹

تصريحات أدعري هذه، صرّح بمضمونها تماماً الجنرال يواف مرداخي، منسق الحكومة الإسرائيلية لشؤون الضفة الغربية وقطاع غزة،¹² مع تأكيده المتكرر على "القدرات التكنولوجية المتقدمة جداً"، التي تمتلكها "إسرائيل" لمواجهة الأنفاق، مما يشير إلى اهتمام إسرائيلي مركزي في مخاطبة الفلسطينيين خصوصاً، والجمهور العربي عموماً، بمضامين إعلامية موحدة.

يحاول الإعلام الإسرائيلي تحميل المقاومة الفلسطينية المسؤولية عن أي تصعيد محتمل، باعتبار أن الحادثة جرت داخل "الأراضي الإسرائيلية". ومن جهة أخرى، يحاول هذا الإعلام ممارسة حرب دعائية نفسية مركزة،

⁷ صفحة الجنرال يواف مرداخي منسق الحكومة الاسرائيلية لشؤون الضفة الغربية وقطاع غزة على موقع الفيسبوك، 5 تشرين ثاني/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/xQ16x4>

⁸ انقسام داخل غرف القرار بإسرائيل حول جثث المقاومين بالنفق، موقع وكالة معا، 3 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/eDt9XR>

⁹ تغريدة على حساب أميخاي أدعري الناطق باسم جيش الاحتلال الإسرائيلي للإعلام العربي، على موقع تويتر، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/a77vTX>

¹⁰ تغريدة على حساب أميخاي أدعري الناطق باسم جيش الاحتلال الإسرائيلي للإعلام العربي، على موقع تويتر، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/WVfujzi>

¹¹ راجع تصريحات أدعري على حسابه على موقع تويتر.

¹² صفحة الجنرال يواف مرداخي منسق الحكومة الاسرائيلية لشؤون الضفة الغربية وقطاع غزة على موقع الفيسبوك، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/9c7Qfn>

تهدف إلى زعزعة ثقة الجمهور الفلسطيني بجدوى أُنفاق المقاومة، وكذلك إضعاف الروح المعنوية للمقاومة الفلسطينية نفسها.

في المستوى السياسي، حمل بنيامين نتنياهو، رئيس حكومة الاحتلال الإسرائيلي، حركة حماس المسؤولية الكاملة عن اختراق النفق على الحدود الإسرائيلية، متهمًا إيَّها "بمحاولة تقويض السيادة الإسرائيلية". كما أشار هو أيضًا إلى التكنولوجيا الحديثة التي جرى "تطويرها"¹³ وهو ما شاركه الافتخار به إفيغدور ليرمان، وزير الجيش الإسرائيلي، الذي قال أيضًا إنه "ليس لدى الجيش أي نية للتصعيد"¹⁴ ومن جانبه، قال نفتالي بينيت، وزير التعليم وزعيم حزب "البيت اليهودي"، إنَّ النفق "يشكّل تهديدًا خطيرًا للسيادة الإسرائيلية"¹⁵.

تنطبق على تصريحات المستوى السياسي الملاحظات ذاتها، التي قيلت بشأن تصريحات المستوى العسكري والأمني الموجهة للجمهور الفلسطيني والعربي. بيد أنَّ تصريحات المستوى السياسي، ورغم تركيزها على المضامين ذاتها، فإنَّها اتَّجَهت على نحو مركَّب، أي موجه لما هو خارج "إسرائيل"، ولما هو داخلها في نفس الوقت.

فمن جهة، أكدت القيادة السياسية الإسرائيلية على موضعية العملية ومحدوديتها، وتعلَّقها "بالمجال الجغرافي الإسرائيلي"، وبعدها الدفاعيَّ الصرف، وعدم دلالتها على أي رغبة في التصعيد. وبدا ذلك موجَّهًا أولًا للقوى الدولية والإقليمية، بهدف التنصّل من أي تطورات ميدانية تالية على العملية، وثانيًا للجمهور الإسرائيلي، في عملية تعبئة داخلية، تسوِّغ الأفعال الإسرائيلية الحربية في حال تصاعدت ردود الأفعال الفلسطينية على العملية.

وإضافة إلى ذلك، تضمّنت هذه التصريحات خطابًا دعائيًا داخليًا حزبيًا، يروِّج لنجاحات حكومة بنيامين نتنياهو، ويعيد تقديمها في صورة القائد القادر على رصد المخاطر التي تهدد "إسرائيل"، وتدميرها، والعمل على تطوير الأدوات والوسائل القادرة على ذلك. وهذا الاعتبار الداخلي، هو وثيق الصلة بحالات المزايادات المستمرة بين الأحزاب الإسرائيلية، وداخل المؤسسة الحاكمة نفسها.¹⁶

في سياق الرسائل المتضادة نفسها، وفي حين قد يذهب البعض إلى أن العملية الإسرائيلية كانت تستهدف تدمير المصالحة،¹⁷ فإنَّ موضعيتها، ودفع الإسرائيليِّين المصريين للتدخل لكبح ردود الأفعال الفلسطينية،¹⁸ والتصريحات الإسرائيلية التي تنفي نية الاغتيال، وتزعم أن الفلسطينيين الذين قُتلوا كانوا قد دخلوا النفق

¹³ . إسرائيل تفجر نفقاً في غزة وتقتل ثمانية فلسطينيين، موقع صحيفة الشرق الأوسط، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/qYekPG>.

¹⁴ . المصدر السابق.

¹⁵ . المصدر السابق.

¹⁶ . ساري عرابي، التصعيد في غزة.. في قلب التعقيد والغموض والحيرة، موقع صحيفة عربي 21، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/wYqWna>.

¹⁷ . راجع مثلاً تصريحات مصطفى البرغوثي الأمين العام للمبادرة الوطنية الفلسطينية، البرغوثي: قصف الاحتلال لنفق في قطاع غزة جريمة تستهدف المصالحة، موقع وكالة معا، 30

تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/XJ75Cy>.

¹⁸ . مصادر ل"العربي الجديد": اتصالات مصرية فلسطينية إسرائيلية أوقفت التصعيد في غزة، موقع صحيفة العربي الجديد، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017،

<https://goo.gl/5QU2Nt>

بعد تفجيرِهِ، وتنفِي استخدام غازات سامة،¹⁹ كل ذلك لا يعزّز هذا التحليل. إضافة إلى أن تخريب المصالح لا يتطلب خوض "إسرائيل" حرباً قد لا تريدها، بمعنى أن تخريب المصالح لا يحتاج إلى أدوات تستدعي الحرب.

لكن حكومة بنيامين نتنياهو تحتاج لأن تقول للمجتمع الإسرائيلي إن خطوات المصالح، وحتى إنجازها، وربما سكوت الحكومة الإسرائيلية عن سير خطواتها تلك، لا يعني أن اليد الإسرائيلية ستكون مغلولة عن حماية الأمن الإسرائيلي. وفي الوقت نفسه يمكن توجيه هذه الرسالة لفصائل المقاومة الفلسطينية، وتكريس معادلة جديدة، وتثبيت وجودها في المعادلة الفلسطينية الداخلية، وذلك بواسطة قوتها الأمنية والعسكرية، "لتقرير مسار الأحداث والتطورات الراهنة والقادمة".²⁰

وإذا كانت الاعتبارات الميدانية والأمنية والعملياتية، وظروف اتخاذ القرار داخل المؤسسة الإسرائيلية، بمستوياتها السياسية والأمنية والعسكرية، ذات دور جوهري في تحديد موعد العملية، فمن غير المستبعد أن يكون تزامنها مع استلام السلطة الفلسطينية لمعبر رفح، اختباراً للأولويات الفلسطينية، الرسمية والشعبية والفصائلية، بعد حوارات المصالح، والتغيرات السياسية في قطاع غزة.

ومن الواضح أن التحليل الإسرائيلي قد أخذ ذلك بعين الاعتبار. ففي مقالة نشرها قائد القيادة الجنوبية السابق في الجيش الإسرائيلي، الجنرال شلومو "سامي" ترجمان، في معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، قال إنَّ عدم رد الفصائل الفلسطينية على العملية الإسرائيلية، ناجم عن الضغوط نفسها التي دفعت حماس إلى التوجه إلى المصالح الفلسطينية، وهي بالتأكيد، أي حماس، لا ترغب في تحمل المسؤولية عن انهيار المصالح، إضافة إلى أن نشوب حرب في هذا التوقيت، قد يقوّض مساعي حماس لإعادة بناء نفسها، وصياغة موضعها المناسب، وحفاظها على قوتها العسكرية، واحتوائها لحركة الجهاد الإسلامي.²¹

لم يكن التقدير الذي كتبه سامي ترجمان بعيداً عن تقديرات عربية وفلسطينية، حاولت فهم الدوافع الإسرائيلية من العملية. فقد كتب الأسير الفلسطيني عبد الناصر عيسى: "إن التفسير الوحيد لهذه الجرأة على الأرجح، هو التقدير الإسرائيلي الصحيح بأن قدرة المقاومة على الرد هي قدرة محدودة، بسبب كوابح متوقعة من مصر وحكومة التوافق، ومرافقة لعملية المصالح الضرورية".²²

والتقدير ذاته تبناه علي حيدر في صحيفة الأخبار اللبنانية المقرّبة من حزب الله، إذ ذهب إلى أنه في البعد السياسي، "من الواضح أن إسرائيل" نفذت جريمتها على «توقيت المصالح الفلسطينية»، ويكشف ذلك عن أن صناع القرار السياسي والأمني في تل أبيب، راهنوا على أن الظرف السياسي الفلسطيني الداخلي (المصالح)، قد يشكل قيماً على المقاومة".²³

19 . راجع مثلاً تصريحات أفيخاي أدعري على حسابه على موقع تويتر.

20 . عريب الرنتاوي، إسرائيل تقصف «نفق المصالح»، موقع صحيفة الدستور الأردنية، 1 تشرين ثاني / نوفمبر، <https://goo.gl/qj5Pgz>

21. Shlomo 'Sami' Turjeman, Demolition of a Palestinian Islamic Jihad Tunnel Inside Israel, The Washington Institute for Near East Policy, November 3, 2017, <https://goo.gl/rhxgYQ>

22 . عبد الناصر عيسى، التحديات الاستراتيجية بعد المصالح، المركز الفلسطيني للإعلام، 5 تشرين ثاني / نوفمبر 2017، <https://goo.gl/7AeMA6>

23 . علي حيدر، العدو يستهدف «المصالح»: تعزيز الردع... أو تخريبها، موقع صحيفة الأخبار اللبنانية، 5 تشرين ثاني / نوفمبر 2017، <https://goo.gl/nPSbMC>

ومع ذلك، يُقدّر سامي ترجمان، أنه وبالرغم من كبح إرادة المقاومة الفلسطينية في الردّ على العملية الإسرائيلية، نظراً لاستمرار مفاعيل الردع الذي تحقق في حرب عام 2014، وتعقيدات المصالحة الفلسطينية، فإنّ العملية قد تدفع الفصائل الفلسطينية لاستثمار ما بنته من أنفاق في مواجهة مبكرة مع "إسرائيل"، خشية من إهدار جهودها في بناء تلك الأنفاق، لا سيما بعد امتلاك "إسرائيل" لتكنولوجيا جديدة، ما تزال مجهولة بالنسبة للفصائل الفلسطينية.²⁴

بطبيعة الحال، لم يقتصر الجيش الإسرائيلي على تقديره بأن الفصائل الفلسطينية لن تردّ على العملية، وإنما قام في نفس يوم العملية بنشر "القبة الحديدية" في محيط قطاع غزة، وفي أسدود وبئر السبع، ومناطق أخرى، وأعلن حالة التأهب، وحدّر سكان المستوطنات التي تُعرف بـ "غلاف غزة"، من عدم قدرته على التنبؤ بالردّ الفلسطيني على عملية تفجير النفق.²⁵ وأدخل إلى "غلاف غزة" عدة ألوية تابعة للمشاة والمدركات، وخاصة لواء المظليين وكتيبة 401 التابعة للمدركات، وقوات عديدة من المشاة.²⁶

قراءة في حسابات الفصائل الفلسطينية

رغم كل من بيانات سرايا القدس الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي التي هدّدت بأن خياراتها مفتوحة، وتأكيد كتائب القسام الجناح العسكري لحركة حماس على أن الاحتلال لن يتمكن من فرض معادلة جديدة، فإنّ الفصائل الفلسطينية لم تردّ على العملية رغم مرور أسبوعين عليها، وهو ما يرجّح أنّها اختارت فعلاً تمرير الضربة، نتيجة حسابات عديدة، وحيثيات المصالحة الجارية، إذ لا يرغب أحد، لا حماس، ولا حركة الجهاد الإسلامي، في تحمل المسؤولية أمام الجماهير الفلسطينية عن تعطيلها، أو خسارة العلاقات القائمة مع النظام المصري.

يتفق سلوك الفصائل الفلسطينية حتى اللحظة مع التقديرات الإسرائيلية والفلسطينية، التي ذهبت إلى ترجيح امتناع الفصائل عن الردّ، رغم الاحتمالات التي تظل مفتوحة وقائمة في الحالة الفلسطينية. بيد أن هذا الامتناع يفتح بدوره المجال للسؤال إن كانت العملية الإسرائيلية الجديدة قد فرضت معادلة جديدة، تحفظ للاحتلال قدرته الأمنية النسبية على ممارسة نشاطه العنيف، وفي الوقت نفسه تمكّنه من كبح فعالية سلاح الفصائل الفلسطينية.

ثمّة قراءة تقول إنّ الفصائل الفلسطينية تمكّنت، في ظلّ حكم حركة حماس لقطاع غزة خلال السنوات العشر الماضية، من مراكمة قدراتها العسكرية وتطويرها، وخلق بيئة أمنية تسمح بتلك المراكمة، ونتيح الحفاظ عليها. إلا أن التعقيدات الناشئة عن مسؤوليات الحكم التي تولتها حماس، وافتقار القطاع لعمق استراتيجي داعم، وتعرّضه لحصار خانق استهدف إنهاك الحاضنة المجتمعية للمقاومة، وبالتالي شلّ قدرة الفصائل الفلسطينية على ممارسة دورها الأصلي في إشغال الاحتلال واستنزافه؛ كل ذلك حوّل سلاحها

²⁴ . Shlomo 'Sami' Turjeman، مصدر سابق.

²⁵ . الاحتلال ينشر القبة الحديدية ويتأهب في محيط غزة، موقع صحيفة القدس الفلسطينية، 30 تشرين أول/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/XziLbv>

²⁶ . الاعتذار الخفي... بين رغبة التصعيد في غزة والخوف منه، المركز الفلسطيني للإعلام، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/RTRP1R>

إلى سلاح دفاعي محض، ومشروط بالحروب.²⁷ فقد فرض الاحتلال معادلة بدأ بتكريسها منذ انتفاضة الأقصى عام 2000، تقوم على الردّ بقوة هائلة، على أي عمل مقاوم ينطلق من أراضي السلطة الفلسطينية. تذهب هذه القراءة إلى أن المعادلة الجديدة التي يحاول الاحتلال فرضها، قد تؤديّ في النتيجة إلى إفقاد سلاح الفصائل وظيفته الدفاعية الراهنة، والثالي تحوله إلى عبء كامل،²⁸ مع احتفاظه بعنصري فاعلية، الأول تعبوي خطابي، تُشكّل فيه الفصائل الفلسطينية، وبمحض وجودها وجدّيّتها وحجمها، مشروعاً تعبويّاً يواجه حالة الانحدار التي يمثلها مشروع التسوية، والثاني استراتيجي، إذ تظلّ مقدّرات المقاومة موجودة إلى حين حدوث مواجهة محتملة في أي لحظة. غير أن استمرار الوضع القائم، قد يؤديّ إلى تآكل العنصرين المذكورين، كما أن الاحتلال يسعى فعليّاً إلى تدمير العامل الاستراتيجي المتمثل في أنفاق المقاومة.²⁹

وفي هذا السياق، يذهب الأسير الفلسطيني عبد الناصر عيسى، إلى أن الظروف الراهنة، التي تفرض مزيداً من القيود على المقاومة الفلسطينية، وتوفّر للاحتلال أفضلية في المبادرة، لن تدوم، إذ إنّ المقاومة، والتي لن تبادر إلى التصعيد في ظلّ المصالحة، ستعمل على تعظيم قدراتها العسكرية، مستفيدة من المصالحة، بما في ذلك قدرات الإنذار المبكر، والحراسة المشددة، وقدرات التمويه والاختفاء والخداع.³⁰

يتعلق قرار الردّ بحركتي حماس والجهاد الإسلامي، وجناحيهما العسكريين، ليس لأن شهداء النفق ينتميان إليهما فحسب، ولا لأن النفق يعود لمقدّرات سرايا القدس العسكرية، ولكن بالدرجة الأولى لمحورية الحركتين وحجمهما في مشهد المقاومة الفلسطيني. فحركة حماس تمثل الفصيل المقاوم الأكبر، والمتحكم بظروف قطاع غزة الأمنية والعسكرية، بينما تمثّل حركة الجهاد الإسلامي الفصيل المقاوم الثاني حجماً، علماً أن بقية الأجنحة العسكرية أعلنت عن موافقها، التي التقت مع موقف سرايا القدس نفسه، من حيث التهديد بالخيارات المفتوحة.

فقد شددت كتائب المقاومة الوطنية، الجناح العسكري للجبهة الديمقراطية، على "جاهزية عناصرها، مع كافة فصائل المقاومة الفلسطينية، للتصدي للاحتلال الإسرائيلي". بينما أشارت كتائب أبو علي مصطفى، الجناح العسكري للجبهة الشعبية، إلى أن "الرد على قادة الاحتلال سيكون موحداً، وبجهم جريمتهم الجبانة". في حين أكّدت كتائب المجاهدين على أن "المقاومة لها الحقّ في الردّ على الاعتداءات الإسرائيلية".³¹

27 . ساري عرابي، التصعيد في غزة.. في قلب التعقيد والغموض والحيرة، مصدر سابق.

28 . المصدر السابق.

29 . ساري عرابي، وجهان لحادثة النفق في غزة، المركز الفلسطيني للإعلام، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/gvo5Vr>

30 . عبد الناصر عيسى، مصدر سابق.

31 . 8 شهداء في قصف الاحتلال لنفق قرب غزة وأذرع عسكرية فلسطينية تتوعد بـ"رد موحد"، موقع صحيفة القدس العربي، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017،

<https://goo.gl/J3mvY4>

نظرة في المواقف الفلسطينية الأخرى

• السلطة الفلسطينية

في اليوم التالي على العملية الإسرائيلية، نعى مجلس الوزراء الفلسطيني برئاسة رامى الحمد الله، وفي مستهل جلسته الأسبوعية، "شهداء الجريمة التي اقترفتها قوات الاحتلال يوم أمس في قطاع غزة"³². وأدان المجلس العدوان بشدة، داعياً المجتمع الدولي، وعلى رأسه الإدارة الأمريكية، إلى اتخاذ الإجراءات الحازمة لإلزام "إسرائيل" بوقف اعتداءاتها على شعبنا، وتوفير الحماية للفلسطينيين. كما دعا الفلسطينيين في السياق نفسه، إلى "التكاتف والتمسك بخيار الوحدة والمصالحة الوطنية، والعمل بكل جدية لضمان نجاحها، كرد على هذا العدوان الإسرائيلي الخطير"³³.

• الفصائل الفلسطينية

إضافة إلى البيانات التي أصدرتها حركتا حماس والجهاد الإسلامي، بما في ذلك جناحاهما العسكريان، فقد قادت الحركتان نشاطاً تركّز بالدرجة الأولى في الاتصالات البينية، إذ أجرى كل من إسماعيل هنية وخالد مشعل وموسى أبو مرزوق، اتصالات هاتفية مع رمضان عبد الله شلح، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي³⁴.

وفي إطار النشاط نفسه، تلقى شلح اتصالاً من السيد حسن نصر الله، أمين عام حزب الله، أكد فيه "وقوف وتضامن حزب الله والمقاومة الإسلامية في لبنان، مع حركة الجهاد الإسلامي، في معركة المصير الواحد والقضية الواحدة"³⁵. وفي الوقت نفسه، بحث نصر الله مع صالح العاروري، نائب رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، العدوان الإسرائيلي³⁶. بينما تلقى هنية اتصالاً من نصر الله تناول الموضوع نفسه³⁷. وكانت الاتصالات بين الحركتين قد توجت بقاء كبير، جمع وفداً من حركة حماس يضم نائب رئيس المكتب السياسي صالح العاروري، وماهر صلاح ومحمد نصر، مع الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، رمضان شلح، ونائبه زياد النخالة³⁸.

من جهتها، وفي يوم العملية نفسه، أدانت حركة فتح في بيان لها "الجريمة الإسرائيلية التي استهدفت أبناء شعبنا في قطاع غزة"، وأكدت أن مرتبكي هذه الجرائم لن يغفلوا من المحاكمة، كما وصفت العملية

³² . مجلس الوزراء يطالب الحكومة البريطانية بالاعتذار والتعويض عن خطئها التاريخي، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية- وفا، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/CsYJHv>

³³ . المصدر السابق.

³⁴ . بحثوا خيارات المقاومة في الرد... د. شلح يتلقى اتصالاً من مشعل وأبو مرزوق للتضامن في مواجهة الاحتلال، موقع وكالة فلسطين اليوم الإخبارية، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/934TtA>

³⁵ . السيد نصر الله يتصل بـرمضان شلح ويستقبل العاروري، موقع قناة العالم الإيرانية، 1 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/VbLZF9>

³⁶ . العاروري يبحث مع نصر الله العدوان الأخير على غزة، موقع حركة حماس، 1 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/Qd9jqK>

³⁷ . هنية يتلقى اتصالاً من الأمين العام لحزب الله، موقع حركة حماس، 1 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/YF8W6b>

³⁸ . العاروري وشلح يؤكدان على وحدة المقاومة في مواجهة الاحتلال، المركز الفلسطيني للإعلام، 2 تشرين ثاني/ نوفمبر 2017، <https://goo.gl/YBEBJp>

بأنها هروب من محاكم الفساد التي تهدد الحكومة الإسرائيلية. وأبدت الحركة حرصها على "المضي قدماً في إنجاز الوحدة الوطنية، مهما كانت التحديات والصعوبات"³⁹.

وفي تصريح لوكالة وفا، أدان فايز أبو عيطة، نائب أمين سر المجلس الثوري لحركة فتح، الجريمة الإسرائيلية، واعتبر أن "الجريمة تأتي في سياق خلط الأوراق، وتوتير الأجواء، لإفشال المصالحة الوطنية الفلسطينية، على اعتبار أن الاحتلال هو المتضرر الأول من تحقيق هذه المصالحة"⁴⁰.

وكان سمير المشهراوي، القائد الفتحاوي المحسوب على تيار النائب محمد دحلان، قد دعا باسم "التيار الإصلاحى في حركة فتح"، القيادة الفلسطينية إلى احترام دماء الشهداء، ووقف التنسيق الأمني، ورفع الإجراءات العقابية التي اتخذتها ضد قطاع غزة⁴¹.

وكان حسين منصور، عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قد ذهب في نفس الاتجاه، حيث قال إن "العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، واستهدافه لنفق المقاومة، هو محاولة بائسة لخلط الأوراق، هدفها إفشال المصالحة الفلسطينية، وجرّ القطاع إلى حرب جديدة"⁴². بينما قال طلال أبو ظريفة، عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية، "إن هذه الجريمة لن تمر مرور الكرام"⁴³.

وأبدت الجبهة العربية الفلسطينية خشيتها من تقويض العدوان الإسرائيلي الجهود الفلسطينية المبدولة للحفاظ على الهدنة. كما قالت جبهة التحرير الفلسطينية إن العملية الإسرائيلية هي محاولة يائسة من الاحتلال للهروب من أزماته الداخلية. أما حزب الشعب، فقد رأى في العدوان الإسرائيلي مضامين سياسية تتمثل في الرغبة في خلط الأوراق في الساحة الفلسطينية، وإعاقة المصالحة⁴⁴. وهو الموقف نفسه الذي رآه مصطفى البرغوثي، الأمين العام للمبادرة الوطنية الفلسطينية⁴⁵.

39. "فتح" تدين الجريمة الإسرائيلية التي استهدفت شعبنا في غزة، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية- وفا، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/pXQ8ku>

40. أبو عيطة يدين الجريمة الإسرائيلية في قطاع غزة، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية- وفا، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/ye797L>

41. حذر من ردود فعل غير محسوبة.. المشهراوي يدعو القيادة الفلسطينية الى وقف التنسيق الامني ورفع الاجراءات العقابية ضد غزة، موقع وكالة سما الإخبارية، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/zHsNRG>

42. قطاع غزة: فصائل المقاومة تدرس خيارات الرد، صحيفة عرب 48، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/L77P26>

43. المصدر السابق.

44. الفصائل الوطنية تدين الجريمة الإسرائيلية في غزة، وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية- وفا، 30 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/VX6kjD>

45. البرغوثي: قصف الاحتلال لنفق في لقطاع غزة جريمة تستهدف المصالحة، موقع وكالة معا، مصدر سابق.

خاتمة

بعد وقت وجيز من فشل محاولة اغتيال اللواء توفيق أبو نعيم، مدير قوات الأمن الداخلي بغزة، جاءت العملية الإسرائيلية بتفجير نفق هجومي للمقاومة الفلسطينية، يعود لسرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي، ورغم أن العملية الأولى ما تزال غامضة، ويرجح أن جماعات سلفية جهادية تتبنى فكر "تنظيم الدولة الإسلامية" تقف خلفها،^{٤٦} فإن احتمالات ارتباطها بعملية تفجير النفق، من حيث علاقتها بالاحتلال الإسرائيلي، تظل قائمة في بعض القراءات.^{٤٧}

وفي كل الأحوال، فإن كلا العمليتين تكشفان عن حجم الظروف بالغة التعقيد التي تتحرك ضمنها حركة حماس، وعن تعدد مصادر التهديد الذي يتعرض له قطاع غزة، ومقاومته على وجه الخصوص. بيد أن هذه الحوادث، وبصرف النظر عن صلتها ببعضها، تشير بالضرورة إلى خلل أمني، سواء في محاولة اغتيال أبو نعيم، وسهولة الوصول له، أو في عملية النفق، الذي لا يُعلم على وجه اليقين السبب الحقيقي الذي أدى إلى اكتشافه.^{٤٨}

ومع أن جملة من الآراء، ولا سيما لبعض الشخصيات السياسية والحزبية الفلسطينية، ترى أن الهدف الإسرائيلي من العملية هو تقويض المصالحة الفلسطينية، إلا أن تقديرات أخرى ترى أن "إسرائيل" بالفعل غير معنية بتطور الوضع إلى حرب، بدليل حرصها على التهدئة، وتوسيط المصيرين لأجل ذلك، وتأكيدها المستمر على الطابع الدفاعي، وكون العملية جرت داخل "الأراضي الإسرائيلية"، إضافة إلى نفيها تعمد الاغتيال، أو بث غازات سامة في النفق.

لكن ذلك لا يعني أن العملية منعزلة تماماً عن المصالحة، إذ أن "إسرائيل" تستغل القيود التي تفرضها المصالحة على حركة حماس خصوصاً، وفصائل المقاومة عموماً، من أجل فرض معادلة جديدة تكون فيها صاحبة المبادرة، مع قدرة كبيرة على كبح فاعلية الفصائل الفلسطينية. إضافة إلى استغلالها حرص الفصائل، بما في ذلك الجهاد الإسلامي، على ألا تتحمل المسؤولية عن فشل المصالحة، أو خسارة العلاقات القائمة مع النظام المصري.

وفي خلفية الحدث، تكمن المزادوات المستمرة بين النخب السياسية والحزبية الإسرائيلية، ومحاولات بنيامين نتنياهو لتجاوز اتهامات الفساد التي تحيط به. وغير بعيد عن ذلك، يرغب نتنياهو في تقديم رسالة مزدوجة، لكل من المجتمع الإسرائيلي والفصائل الفلسطينية، بأن المصالحة لن تكون عقبة أمام قدرات "إسرائيل" الأمنية، وهي رسالة تتضمن حمولة تعبوية للداخل الإسرائيلي، ودعاية سلبية تستهدف الفصائل الفلسطينية، مصحوبة باستعراض واضح لما يقال إنها قدرات تكنولوجية متطورة لكشف الأنفاق وتدميرها، وربما يصطف داخل جملة الأهداف الإسرائيلية تجريب أسلحة جديدة على الأنفاق الفلسطينية.

46 . ساري عرابي، التصعيد في غزة.. في قلب التعقيد والغموض والحيرة، مصدر سابق.

47 . عريب الرنتاوي، إسرائيل تقصف «نفق المصالحة»، مصدر سابق.

48 . عبد الستار قاسم، الثغرات الأمنية في قطاع غزة، صحيفة رأي اليوم الإلكترونية، 31 تشرين أول/ أكتوبر 2017، <https://goo.gl/yNEqdk>

وبينما نتجّه بعض الآراء إلى أن الفصائل الفلسطينية ستتجاوز هذه المعادلة، بعدما تتكيف مع الوقائع الجديدة في قطاع غزة، وسوف تطوّر أدوات لكسر المبادرة الإسرائيلية، وردع محاولاتها استنزاف الفصائل في غزة، فإنّ ثمة من يرى أن مضي المصالحة قد لا يتيح مثل تلك القدرات للفصائل، التي ستظل تخشى من الاصطدام بالسلطة، ولاسيما أنها لن تعود تتفرد بالمجال الجغرافي لقطاع غزة.

وبالنسبة للتفاعل الفلسطيني مع الحدث، فقد أصدرت كافة القوى الفلسطينية، بما فيها السلطة الفلسطينية عبر مجلس الوزراء، بيانات أدانت فيها العملية الإسرائيلية ونعت الشهداء، بيد أن أكثر انشغال السلطة كان صوب إحياء ذكرى وعد بلفور، واستلام معبر رفح في قطاع غزة.

في هذه الأثناء، تبين أن القوى الأكثر فاعلية في هذا الموضوع، كانت حركة حماس والجهاد الإسلامي، وذلك من خلال كم الاتصالات واللقاءات التي جمعت بينهما، في تعبير عن وحدة الموقف، وسعي لتنسيق الجهود، من أجل الخروج برؤية واحدة لمواجهة الإرادة الإسرائيلية، التي تعمل على استغلال الظروف المعقد للمقاومة الفلسطينية، لفرض معادلة جديدة.

وبالنظر إلى مجمل القراءات السابقة، سواء بشأن دوافع الاحتلال، أو سلوك المقاومة الفلسطينية، يتبين أن الأطراف جميعها لا تريد التصعيد، ولكن أحداً لا يمكنه السيطرة المطلقة على تداعيات الأحداث، لا سيما مع استمرار سلوك الاحتلال الاستفزازي، وخشية الفصائل الفلسطينية من فقدانها لسلاحها الإستراتيجي، المتمثل بالأنفاق.